المصدر: روزاليوسف

التاريخ : ١٩٩٢/٣/٢

أيام السادات الأخيرة

من جديد ـ وبعد اكثر من ١٠ سنوات على اغتياله ـ بدا انور السادات يعود إلى دائرة الضوء ، والصوت . دفعته احداث كثيرة إلى ذلك .. مفاوضات السلام .. تزايد قسوة الجماعات الأصولية المتشددة .. جرائم إسرائيل .. جنون صدام حسين وما جرى في الخليج .. إن هذه الأحداث جعلت البعض يندم على اننا ظلمنا السادات ، ويشيد به ، ويصفه بانه رجل سبق عصره .. وجعلت البعض الآخر يصر على ان كل ما جرى لنا ، ما كان ليجرى لولاه .

واعترف باننى احسست بالحيرة بين الفريقين .. وعجزت عن الانحياز إلى احدهما .. ورحت افكر طويلاً في الحسم . ولم اجد امامى سوى ان افتش عن الإجابة في نفسى ، وعند الآخرين .. ووجدت الكثير من الأحداث ، والأسرار ، تتدفق .. وعندما رحت ارتبها خرجت هذه الشهادة عن الأيام الأخيرة للسادات .. او الطريق الذى سلكه حتى وصل إلى حادث المنصة .

قبل ان يخرج من بيته ، كانت زوجته تصر على ان يتناول « حبة » مهدئة .. حبة « فاليوم » .. ثم تستحلفه بالله .. وباولاده ان يمسك اعصابه ، وان يضعها في « ثلاجة » .

ولكن .. انور السادات كان نادرا ما يستجيب لمثل هذه النصائح .. كان يشتعل غضبا بمجرد إن يتذكر خصومه .. او بمجرد ان تاتي سيرتهم امامه .. ولا يهم ان كان يتحدث في مجلس الشعب .. او في حديث صحفي ، او تيفزيوني .. او في استراحة اقرب الاصدقاء إلى قلبه .. عثمان احمد عثمان .

إن اعصابه انفلتت ، وهربت منه بعد مظاهرات « الطعام » التي انفجرت من الاسكندرية إلى اسوان ، في ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ ، وكانت بداية النهاية .. لقد فوجيء بما حدث .. ولم يصدق نفسه .. ولم يقبل التفسير التاريخي لما حدث .. اى لم يقبل مقولة : « إن الشعوب تمشي على بطونها » .. وإن الجوع « كافر » .. وإن الناس عندما تعجز عن إطعام نفسها ، تتصرف بجنون ويأس !

وحاول احمد بهاء الدين تهوين الصدمة .. وقال :

— إن المظاهرات ياريس لا تحدث إلا في الدول المتقدمة .. والامر حقيقة لا يستدعي كل هذا الغضب !

لكن « الريس » لم يعجبه ذلك .. وقال :

— إنك يااحمد لا تعرف كل ما حدث .. لقد حاولوا مهاجمة بيتي في الجيزة وكادوا يصلون إليه .. لقد كانت زوجات الوزراء والكبراء يصرخن في بيوتهن فزعا ويحاولن الاستغاثة باى مخلوق ، خوفا من اقتحام الغوغاء البيوت على العائلات .. إن ما كانت تهتف به الغوغاء في الشوارع كان غاية في البذاءة !

اما أكثر الهتافات التى اوجعته فكانت « هو بيلبس آخر موضة واحنا بنسكن عشرة ف اوضة » .. « قولوا للنايم ف عابدين العمال بيباتوا جعانين » .. « ياحكمنا من عابدين فين الحق فين الدين » .. « ياحكمنا بالمباحث كل الشعب بظلمك حاسس » .. « مش كفاية لبسنا الخيش ، جايين ياخدوا رغيف العيش » .

كان الوجع شديدا .. ورد الفعل اشد .. ودفع الجهاز العصبى الثمن .. اصبح مضطربا .. مهزوزا .. سريع الانهيار .. فكان ان انضم إلى طاقم اطباء السادات الدائمين ، اخصائى ف الامراض العصبية ، كان عليه ان يحقنه بنوع خاص من الدواء كل ١٢ ساعة .. واصبحت زوجته « جيهان » ، حريصة على ان يتناول الاقراص المهدئة قبل ان يلقى اى خطاب سياسى .. او يحضر اى لقاء جماهيرى .. كانت تريده الا ينفعل .. وان يرد على الاستفزاز بهدوء .. فراسمال السياسى .. البرود .

ولم يكن السادات يميل إلى « الفاليوم » كثيرا .. وكان يلجا إلى ما يريحه اكثر .. الصلاة .. وإلى ما يعيد إليه الاطمئنان أسرع .. القرآن الكريم .

قبل تحرير سيناء ، كان يذهب إلى قريته « ميت ابو الكوم » ف شهر « رمضان » ليعتكف .. يخلع ثياب « الافنديات » ، ويرتدى الجلباب الواسع .. ويجلس على الارض ليقرا آيات الذكر الحكيم .. ويمكن ان اصف لك المشهد .. يفرش سجادة الصلاة .. يجلس عليها .. يضع « شلتة » او اكثر امامه .. ثم يضع عليها المصحف ، وميكرفون يتصل بجهاز تسجيل .. وبعد ان يضغط على « زر » التسجيل ، يبدا ف القراءة ، بتجويد ، يقلد فيه الشيخ محمد رفعت .. وما ان ينتهى من « جزء » حتى يتوقف ، ليسمع صوته .. وغالبا ما كان

يعيد تسجيل الجزء الواحد اكثر من مرة حتى يصل إلى افضل نتيجة .. وقد ترك بعد رحيله مجموعة من شرائط التسجيل عليها القرآن بصوته .

وعلى الإفطار كان يدعو كل يوم ٥٠ شخصاً من أهل القرية .. كانت المائدة تمد في الحديقة .
وعلى راسها كان يجلس السادات على مقعد هزاز ، يتيح له الاستمتاع بتدخين « البايب » بعد تناول الطعام .. ولم يكن بطبيعته شرها للطعام . وفي الغالب كان ياكل وجبة واحدة هى وجبة الغداء في الايام العادية .. ووجبة الإفطار في رمضان .. وكان يفضل الطعام المسلوق ، وياكل بيديه .. لا بالشوكة والسكين .. اما وجبته المميزة فكانت ارنبا مسلوقا .. مع انهم كانوا يحضرون له من الخارج نوعا من « المكرونة » مصنوعة من السليلوز ، ومستوردة من سويسرا .. وليس فيها اى مواد نشوية او غذائية .. اى تحمل مذاق المكرونة ، دون أن تحمل عيوبها .

وبعد الإفطار كان يشرب الشاى بالنعناع ، او اليانسون .. ونادرا ما كان يشرب القهوة حتى لا تؤثر على قلبه .. وفي بيت القرية ، قاعة كبيرة ، عريضة ، لاستقبال الناس ، مفروشة بالكنب العريض الأشبه بالمصاطب .. ولكنها مصاطب من الخشب ، مغطاة بمراتب من القطن ، عليها قماش « كريتون » فاقع الألوان .. وعلى الجدران صور مختلفة له .. صورة مع ماذون القرية .. وشيخ الكتاب الذى تعلم فيه وهو صبى .. صورة وهو ينزل من طائرة الهيلكوبتر .. صورة امام الأهرامات .. وصورة وهو يصلى في القدس .

ويقول احمد بهاء الدين . إن السادات كان يكره القاهرة واهلها « وكل ما تمثله » .. وزاد هذا الإحساس لديه بعد مظاهرات الطعام » ..

كان يشعر « ان القاهرة بالذات ضده دون سائر القطر ، فهى فى نظره مدينة المشاغبين من الطلبة والعمال والمتحذلقين والصحفيين والكتاب وكل ما اصبح يسميهم بقصد الاستهزاء « الافنديات » و« الأرذال » وصار يلقى خطاباته فى المناسبات التى تقتضى الوقوف امام الجماهير خارج القاهرة ، ويهاجم فى معسكرات الجيش « افنديات القاهرة » ويؤلب الضباط والجنود ضدهم بان يقارن علنا بين حياتهم فى المعسكرات الصحراوية وبين « افنديات القاهرة » وكان كل من فى القاهرة يعيش ناعما فى غرفة مكيفة .

« ولهذا ايضاً بدا يقضى معظم ايامه فى « الاستراحات » المتزايدة فى مختلف انحاء القطر ، فلا ياتى إلى القاهرة ولا حتى إلى بيته فى الجيزة إلا فى المناسبات وفى اوقات نادرة » .

ويدعم هذا التفسير مشهدا رايته بنفسى

فى يوم ٩ يوليو ١٩٧٩ ، بدات انا والزميلة فايزة سعد فى روز اليوسف حملة صحفية ضد رغبة السادات فى تحويل نقابة الصحفيين إلى ناد .. ولم نكتف بالانزعاج .. ولم نحتمله .. ورحنا نطرق بإلحاح ابواب نجوم الصحافة الذين صاموا عن الكلام .. وناشدناهم ان يفطروا ، ويتحدثوا .. وكان اول من استجاب إحسان عبد القدوس .. الذى قال : إن الحكومة هى رئيس التحرير الوحيد فى صحافتنا .. وقال : إن الصحفى اصبح موظفا « اميريا » .. يكتب وفى جيبه « بوليصة » تامين .. وانه تزوج الحكومة ولم يعد قادراً على خيانتها .. ومن ثم اصبح ما يكتب فى صحافتنا لا يختلف كثيرا عما يُكتب فى كتب « التدبير المنزلى » .

ولم يعجب السادات ما قاله إحسان ـ الذى كان يصفه بانه « دلوعة » ـ وطلب من صبرى ابو المجد (وكان رئيسا لتحرير المصور) ومن موسى صبرى (وكان رئيسا لتحرير الاخبار)

الرد على ما نشرته روز اليوسف ، فراح صبرى ابو المجد ـ على الفور ـ يلعن صحافة زمان ، ويشيد بالحرية التى تتمتع بها الصحافة فى عهد السادات .. وانتظر موسى صبرى بعض الوقت ليرد فى يوم ٦ اغسطس ١٩٧٩ ، وهو اليوم الذى اختاره السادات ليحاور الصحفيين بشان مستقبلهم .. فى استراحة المعمورة بالاسكندرية .. وقال موسى صبرى فى افتتاحيه « الأخبار » : « لسنا مع إحسان عبد القدوس ـ الذى يريد الآن فقط ـ ان يعود بنا إلى الملكية الخاصة للصحفى بحجة ان تعدد الملاك يعنى تعدد الآراء .. فهذه حجة وهمية لصالح اصحاب الصحف فقط .. ولصالح قوى يمكن ان تسخر الصحف لاهوائها فقط » .. إن إحسان عبد القدوس « يريد العودة بنا إلى عهد صحافة السيدة فاطمة اليوسف ، حيث كان الصحفيون يتقاضون القروش .. وحيث كانت المصروفات السرية مصدر رزق .. وحيث كانت الملكية هى لكل شىء .. المطبعة والراى معا » ! .

لقد شحنت الاقلام المؤيدة للسادات صدره ضدنا .. ضد روز اليوسف .. التى سبق ان وصفت مظاهرات الطعام بانها انتفاضة شعبية .. وكان السادات يصفها بانتفاضة « الحرامية » .. وكان موقف روز اليوسف ـ المنحاز إلى البسطاء ـ السبب المباشر فى إقصاء قيادتها .. عبد الرحمن الشرقاوى ، وصلاح حافظ ، وفتحى غانم .. ولكن تغيير القيادة لم يستطع ان يغير روز اليوسف تماما .. فها هى ـ بالرغم من كل ما جرى لها ـ ترفض حل النقابة .. وترفض تدخل الحكومة فى بلاط صاحبة الجلالة .. وترفض الحملة الظالمة التى تعرضت لها الصحافة ، والتى كادت تجعل منها مهنة سيئة السمعة .. لقد ذبلت الوردة ولكن رائحة العطر القديم لم تهرب من اوراقها .

سافرنا إلى الاسكندرية .. كان معنا صلاح حافظ ، ولويس جريس ، وعبد العزيز خميس ، وانضم إلينا هناك فتحي غانم ، ومرسى الشافعي ، ومصطفى محمود .. ورحنا إلى اللقاء .. وفضلنا ان نجلس في اخر صف . ولم يتكلم احد منا .. ولكن .. السادات اصر ـ بعد ان انفض الاجتماع ـ ان يقف معنا ، عندما وصل إلينا .. واشتكى إحسان عبد القدوس لصلاح حافظ .. وعبر عن سخطه من الصحفيين الذين يتقاضون اجوراً مرتفعة تفوق اجور الوزراء ، ولا يحمدون هذه النعمة .. وحاولت صحفية شابة ان تقول له : إن الصحفيين الذين يقصدهم قلة .. وان غالبية الصحفيين لا يجدون الحد الادنى للمعيشة .. ولكنه لم يتركها تكمل ما بداته .. وشخط فيها .. وهو يقول : « بس .. يابت » ! .

وكانت عبارته المباغتة كفيلة بان نسكت .. ومن ثم انتهت الدردشة العابرة ..

ولكن .. تفسير احمد بهاء الدين لهروب السادات الدائم من القاهرة ليس التفسير الوحيد .. هناك تفسير آخر قدمته مراسلة تليفزيونية امريكية هي دورين كايز في كتاب عنوانه « ضفادع وعقارب » ، صاغت فيه تجربتها في القاهرة ، في ذلك الوقت .. وقد قالت

« إن غرام السادات بالتطلع إلى بلاده في مكانه بالطائرة اكثر من رؤيتها على الارض ، لم يكن بسبب دواعي الأمن فقط ، بل لعلني اجرؤ فاقول إن السبب الاهم هو ان السادات وهو

ينتقل بالهيلكوبتر بين القاهرة ومسقط راسه فى ميت ابو الكوم - او استراحته المفضلة فى القناطر، او إحدى استراحتيه الفاخرتين فى الإسماعيلية، او قصره الصيفى فى المعمورة، او عشرات الاستراحات فى مدن مصر وقراها بالدلتا، او على طول نهر النيل او شط القناة - اقول كان تفضيله للانتقال بطريق الجو هو ان هذا الطريق هو اقل الوسائل إيلاما - وإن كان اكثرها كلفة - حتى لا يكلف نفسه مشقة رؤية وسماع وشم الفقر الناشب فى عنق الملايين من ابناء شعبه على طول الطريق » .

« لقد كان السادات يدرك جيدا انه لن يستطيع ابدا إنجاز وعده للناس بان الاوضاع الاقتصادية سوف تتحسن وان الرخاء سوف يعم بين يوم وليلة، او بين سنه واخرى .. وبدلاً من ان يواجه المشكلة الحقيقية آثر الهرب بالقفز فوقها محلقا فى السماء » .

« وبحسبة بسيطة .. كان السادات يقضى فى الجو ساعات اكثر من التى يقضيها اى طيار محترف يعمل على اى شركة طيران تجارية » .

إن تحليق السادات فى الجو، وحياته فى الاستراحات، جعلاه يبتعد عن السواد الاعظم من الشعب .. ومن ثم كانت صدمته حادة فى مظاهرات الطعام .. وهى صدمة أثرت عليه، وعلى قراراته، وسياساته، وحياته الخاصة، حتى أغتيل فى اكتوبر ١٩٨١ .

عادل حمودة